

الاستلزام الحوارى فى القرآن الكريم

آيات من سورة مريم أنموذجا

د. سامية محصول

المدرسة العليا للأساتذة

بوزريعة الجزائر

الملخص:

يهدف البحث إلى إلقاء نظرة جديدة على التراث البلاغى العربى لذلك، سنسلط الضوء على كيفية توظيف مفهوم الاستلزام الحوارى (أحد أبرز المفاهيم فى الدرس التداولى الغربى الحديث) من أجل دراسة جوانب بلاغية فى القرآن الكريم، من منظور تداولى.

وذلك من خلال البحث فى آيات من سورة مريم، التى اشتملت على معان صريحة ومباشرة، ومعان مستلزمة غير مباشرة، تُستنبط من خلال السياق التداولى لها. وكذلك الوقوف عند مبادئ التخاطب التداولية، فى محاوره إبراهيم عليه السلام لأبيه.

Abstract :

The research aims at giving a new vision to Arabic rhetorical heritage.

The study is to focus on how the concept of Conversational implicature (one of the most prominent concepts in the modern western pragmatic study) is employed In order to study the rhetorical aspects in Quran, from a pragmatic perspectives.

The study is to explore some verses of Surat Meriem wich included explicit meaning and inexplicit meaning .

The study Also shed light on pragmatic principles of speech in the dialogue of Ibrahim –peace be upon him- with his father.

*** **

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى اللهم على خاتم المرسلين، محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين، وبعد:

فإن الناظر المتأمل للتراث البلاغي العربي- واللغوي عموماً- يظهر له البعد الفكري، وعمق النظر عند علمائنا الأجلاء، الذين لم يتركوا شاردة ولا واردة إلا وانتبهوا لها، وكل ما ظهر من نظريات لسانية غريبة حديثة، إلا ويجد لها الباحث أثراً في مؤلفاتهم القيمة، وحتى لا نزيد على الأمر حقه، فإننا نشير إلى أن أغلب القضايا التي تشير إليها الدراسات الحديثة كانت مبنوثة في ثنايا كتبهم، بأسماء مختلفة عن التي نتداولها الآن، كما كان ينقصهم التنظير لهذه الأفكار المطروحة، لأن علماءنا الأولين مالوا في مؤلفاتهم إلى الجانب التطبيقي أكثر من التنظيري، كما هو واضح في أغلب مؤلفاتهم، وهذا ليس لنقص فيهم، وإنما لأنهم كانوا في عصر قوة العلم، وربما كانت تلك الأفكار بدئية عندهم فلم يضعوا لها نظريات مقننة.

إن أهم ما كانت تهتم به البلاغة العربية، هو إيصال المعنى إلى السامع في أنصع صورته، وهذا واضح في أغلب المؤلفات، وعلى سبيل المثال نذكر كلام الجاحظ عن البيان، إذ يقول: "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله، كأننا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر، والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى؛ فذاك هو البيان في ذلك الموضوع."¹

يظهر جلياً من كلام الجاحظ الاهتمام بطرفي الخطاب: المتكلم والسامع من خلال اتباعهما للشروط التي تحقق الفهم، إضافة إلى إشارته إلى كل ما من شأنه أن يساعد على حصول الفهم من غير اللغة، من خلال قوله "ومن أي جنس كان الدليل"، كما أن قوله "فذاك هو البيان في ذلك الموضوع" يعني الدلالة المقصودة في سياق محدد، كما كان تركيزه واضحاً على الغرض والقصد من الكلام، وغير ذلك من الإشارات المشابهة لها، في كتب البلاغيين.

إن المفاهيم التي ذكرناها قبل قليل، (من غرض وقصد، ومتكلم وملتق، وسياق..) تعد أهم القضايا التي يعالجها درس لساني حديث، يسمى التداولية، وكثير من مباحث البلاغة العربية، شديدة الارتباط بهذا الدرس اللساني.

هذا يعنى أن البلاغة أوسع وأشمل من أن تقتصر على الجانب الجمالى، بل هى "مجموع القواعد والوصفات التى يتيح استخدامها إقناع سامع الخطاب (وفىما بعد قارئ العمل)، حتى لو كان ما ينبغى إقناعه به كاذباً"²، يقول رولان بارت: "لفظ البلاغة يمتلك دلالة مزدوجة: فهى أداة محاجة، ووسيلة تفكير وتقنية للإقناع، إضافة إلى كونها فنّ القول، وجودة الحديث"³.

وإذا اعتبرنا أن البلاغة تهتم بكل ذلك وأكثر، انطلاقاً مما أورده الأولون عنها، فإننا نحاول النظر إليها بأدوات حديثة، من منظار تداولي، قد يسهم فى إلقاء نظرة جديدة على الدراسات السابقة. "فمجموعة التحولات المعرفية التى جدت فى نظرية اللغة وأصولها ومستوياتها ووظائفها، والفلسفة العلمية الكامنة وراءها، تمس بشكل مباشر الخطاب، وطرق تحليله، ووظائفه المتعددة، بشكل كليّ شامل، مما يجعل أى مقارنة علمية لهذا الخطاب تختلف فى محدداتها ونهجها من المقاربات البلاغية السابقة"⁴، كما أنه "لا سبيل إلى تقويم الممارسة التراثية، ما لم يحصل الاستناد إلى مجال تداولي متميز عن غيره من المجالات، بأوصاف خاصة، ومنضبط بقواعد محددة، يؤدي الإخلال بها إلى آفات تضر بهذه الممارسة"⁵.

وفى بحثنا هذا، نسلط الضوء على كيفية توظيف مفهوم الاستلزام الحوارى، لدراسة جوانب بلاغية فى القرآن الكريم.

الاستلزام الحوارى:

الاستلزام الحوارى هو أحد أبرز المفاهيم فى الدرس التداولي الغربى الحديث، وهو: "لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شئ يعنيه المتكلم ويوحى به ويقترحه، ولا يكون جزءاً مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"⁶. يعنى أن جمل اللغات الطبيعية فى بعض المقامات تدل على معنى غير محتواها القضيوي، أى أنّ هناك جملاً تدل على معنيين اثنين فى الوقت نفسه؛ أحدهما حرفي، والآخر مستلزم⁷.

يظهر أن المعاني ليست دائماً صريحة بل هناك حالات سياقية، تستدعي عدم التصريح والكلام المباشر، فأحياناً يُذكر المعنى مباشرة، وأحياناً لا يذكر مباشرة، وإنما يفهم من دلالة ضمنية، تلميح، تعريض، كناية... إلخ.

ونشير إلى أنه تم الانتباه فى الفكر اللغوي العربى إلى ظاهرة الاستلزام الحوارى، ليس من حيث كونها مفهوماً، وإنما باعتبارها إشكالاً دلالياً يبرز من حين لآخر أثناء

الخطاب، لذا طرحت جملة من الاقتراحات لوصفه واستقصائه، خاصة بعلمي البلاغة والأصول، بيد أن هذه الاقتراحات بقيت في نطاق ملاحظة الظاهرة والتمثيل لها، ثم وضع مصطلحات تتباين بتباين تلك العلوم، ومن هذه المصطلحات: الأغراض التي تؤديها الأساليب، ودلالة المفهوم، والمعنى المقامي، والمعنى الفرعي⁸، وغيرها من المصطلحات والمفاهيم التي تدل على مدى وعيهم بهذه الظاهرة اللغوية.

يعدّ "بول غرايس" من أوّل المنظرين لمفهوم الاستلزام الحوارية، إذ اقترح في مقاله الشهير "المنطق والمحادثة" مفهوم "حكم المحادثة"، وتتمثل الفكرة الأساسية في أن المتخاطبين عندما يتحاورون إنما يقبلون ويتبعون عدداً معيناً من القواعد الضمنية اللازمة للتواصل⁹.

قوانين المحادثة عند "غرايس":

يذهب "غرايس" إلى أن كل حوار يقوم على مبدأ عام يخضع له كل المتحاورين، يسمى: مبدأ التعاون، ويبيّن "غرايس" أن هذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمتخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخل فيه، وقد يكون هذا الحديث محدداً قبل دخولهما في الكلام، أو يحصل تحديده أثناء هذا الكلام، وصيغة هذا المبدأ هي "ليكن انتهاضك للمتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه"¹⁰، بمعنى أن العملية التخاطبية يجب أن تسير وفق ما يتطلبه الغرض المرسوم لها، وعلى هذا الأساس، رأى "غرايس" أن كل عملية تخاطبية، تضبطها قواعد يفترض على المتحدثين احترامها، لبلوغ الغاية من الخطاب وهي الإفادة والوضوح.

-قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التعاون:

فرّع غرايس على مبدأ التعاون مجموعة من القواعد التخاطبية، قسمها أربعة أقسام، وتحت كل واحدة منها، قواعد مخصوصة، تتمثل هذه القواعد في:

1- قاعدة كمّ الخبر: تحتوي على قاعدتين هما:

-لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته. - لا تجعل إفادتك تتعدى القدر

المطلوب.

2- قاعدة كيف الخبر: وقاعدتها هما:

-لا تقل ما تعلم كذبه. -لا تقل ما ليست لك عليه بيّنة.

3- قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال: وهي: ليناسب مقالك مقامك.

4- قواعد جهة الخبر: وهي:

- لتحترز من الالتباس. - لتحترز من الإجمال. - لتتكلم بإيجاز. - لترتب كلامك¹¹.

ولكن قد يحدث أن يخالف المتخاطبان حفظ هذه القواعد -ولو أنهما سيداومان على حفظ مبدأ التعاون- فإذا وقعت هذه المخالفة؛ فإن الإفادة في المخاطبة تنتقل من ظاهرها الصريح والحقيقي إلى وجه غير صريح وغير حقيقي¹²، ويظهر من هذا أن الاستلزام الحواري يحدث حين يتم انتهاك قاعدة من قواعد مبدأ التعاون.

وهكذا تكون قواعد المحادثة عند غرايس "مبادئ تعاون نجعل بها -أو نتنبأ أن نجعل بها- التواصل سهلاً، ويُعطي خرقُ هذه المبادئ استلزماً Implicature عند المتكلم بصددها ما يقصده؛ وهذا الاستلزام نحتاجه لفهم السبب في تلفظ المتكلم بهذا القول أو ذاك، أولفهم الكيفية التي أنتج بها المتكلم قوله"¹³.

وعلى الرغم أن مبدأ التعاون "فتح باباً واسعاً في تطوير التداوليات اللغوية، وتنوع الدراسات المتعلقة بموضوع التواصل الإنساني"¹⁴، إلا أنه تعرض لعدة انتقادات، لعل أهمها: استبعاد غرايس في قواعده الجانب المادي والاجتماعي والتهذيبي، وغيرها من الجوانب التي تمّ إغفالها بصفة كلية، أو تمّ منحها مكانة ثانوية، رغم الدور الذي تؤديه في كل عملية تخاطبية¹⁵. ويشير "طه عبد الرحمان" إلى ذلك أيضاً، بقوله إن مبدأ التعاون والقواعد المتولدة منه لا تضبط إلا الجانب التبليغي من التخاطب، أما الجانب التهذيبي منه فقد أسقط اعتباره إسقاطاً، رغم أن غرايس قد أشار إلى هذا الجانب، في عبارته التي جاء فيها أن هناك أنواعاً شتى لقواعد أخرى جمالية واجتماعية وأخلاقية، من قبيل "لتكن مؤدباً" يتبعها المتخاطبون في أحاديثهم التي قد تؤكّد معاني غير متعارف عليها، ومع إشارة غرايس هذه فإنه لم يُقم للجانب التهذيبي كبير وزن¹⁶.

وبحثاً عن العناصر الغائبة عن مبدأ التعاون، فقد وُجدت مبادئ أخرى، حاولت إتمام بعض النقائص عند غرايس، هي: 1- مبدأ التأدب، 2- مبدأ التواضع، 3- مبدأ التأدب الأقصى، 4- مبدأ التصديق، سأحاول أن أتعرض لأهم مفاهيمها وقواعدها باختصار:

- مبدأ التأدب: وصيغة هذا المبدأ الذي وضعته "روبين لاكوف" هي "لتكن مؤدباً"، وهو يقضي بتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الغاية من الكلام، كما يجب أن يلتزم بضوابط التهذيب بما لا يقل عن ضوابط التبليغ.

- قواعد التخاطب المتفرعة عن مبدأ التأدب: فرعت "لاكوف" ثلاث قواعد عن

مبدأ التهذيب، هي:

- قاعدة التعفف: وقوامها لا تفرض نفسك على المخاطب.

- قاعدة التشكك (التخيير): قوامها لتجعل مخاطبك يختار بنفسه.

- قاعدة التودد: قوامها لتظهر الود للمخاطب.

مبدأ التواجه: يعد المبدأ التداولي الثالث الذي ينضبط به التخاطب، الذي ورد مضمونه عند "بنلوب براون" و"ستيفن ليفنسون"، وصيغة هذا المبدأ هي: "لتصن وجه غيرك".

ويرتكز المبدأ على مفهومين أساسيين هما: أحدهما مفهوم الوجه، والثاني مفهوم التهديد.

أما الوجه فهو عبارة عن الذات التي يدعيها المرء لنفسه، التي يريد أن تتحدد بها قيمته الاجتماعية، وهو على ضربين:

- الوجه الدافع: وهو إرادة المرء أن لا يعترض الغير سبيل أفعاله، أو إرادة دفع الاعتراض.

- الوجه الجالب: أو إرادة جلب الاعتراف، أي إرادة المرء أن يعترف الغير بأفعاله. وأما التهديد: فيرى هذان اللسانيان أن من الأقوال التي تنزل في التداوليات منزلة أعمال ما يهدد الوجه تهديدا ذاتيا، وهي الأقوال التي تعوق بطبيعتها إرادات المستمع أو المتكلم في دفع الاعتراض، وجلب الاعتراف.

لذلك كان لا بد من تحديد خطط تخاطبية للتخفيف من آثار هذا التهديد، ذكر "براون" و"ليفنسون" خمسا منها، على المتكلم أن يختار منها ما يلائم قوله ذا الصيغة التهديدية، وهي:

1- أن يمتنع المتكلم عن إيراد القول المهدد.

2- أن يصرح بالقول المهدد، من غير تعديل يخفف من جانبه التهديدي.

3- أن يصرح بالقول المهدد، مع إمكانية التعديل الذي يدفع عن المستمع الإضرار بوجهه الدافع.

4- أن يصرح بالقول المهدد، مع إمكانية التعديل الذي يدفع عن المستمع الإضرار

بوجهه الجالب.

5- أن يؤدي القول بطريق التعريض، ويترك للمستمع أن يتخير أحد معانيه المحتملة.

ويسوق طه عبد الرحمان، المثال الآتي لتوضيح هذه الخطط التخاطبية: "وهو طلب إغلاق النافذة" الذي يحلّل وفق مبدأ التواجه كالاتي:

- يرى المتكلم عدم المخاطرة بالوجه لأن هذا يضره وبالمستمع، فيمتنع عن طلب إغلاق النافذة من المخاطب.

- قد يطلب المتكلم من المستمع إغلاق النافذة، دون أن يستعين بصيغة تلطّف الأثر التهديدي لهذا الطلب، كأن يقول له: "أطلب منك أن تغلق النافذة".

- وقد يتوسل المتكلم من المخاطب عند طلب إغلاق النافذة، بصيغة تحفظ الوجه الدافع لهذا المستمع، كأن يقول له: "هل لك أن تغلق النافذة".

- وقد يتوسل المتكلم من المخاطب عند طلب إغلاق النافذة بصيغة تحفظ الوجه الجالب لهذا المستمع، كأن يقول له: "ألست تبادر إلى إغلاق الباب، فقد تعرضنا لمجرى الهواء".

- قد يطلب المتكلم من المخاطب إغلاق النافذة بطريق التعريض؛ كأن يقول له: "إن الجلوس في مجرى الهواء مؤذ إيداء"، ثم يفسح المجال لمخاطبه ليستنبط المعنى المستلزم بنفسه.

4- مبدأ التآدب الأقصى: هو المبدأ التداولى الرابع الذي أورده "ليتش" في كتاب مبادئ التداوليات، وعدّه مكملا لمبدأ التعاون، وصاغه في صورتين؛ إحداهما إيجابية والأخرى سلبية، وهما على الترتيب:

- أكثر من الكلام المؤدب. - قَلل من الكلام غير المؤدب.
وتتفرع عن مبدأ التآدب الأقصى قواعد ذات صورتين سلبية وإيجابية، ننتيها فيما يلي:

- قاعدة اللباقة: وصورتاها هما: - قَلل من خسارة الغير. - أكثر من ربح الغير.
- قاعدة السخاء: وصورتاها هما: - قَلل من ربح الذات. - أكثر من خسارة الذات.
- قاعدة الاستحسان: وصورتاها هما: - قَلل من ذم الغير. - أكثر من مدح الغير.
- قاعدة التواضع: وصورتاها هما: - قَلل من مدح الذات. - أكثر من ذم الذات.

- قاعدة الاتفاق: وصورتها هما:- قلة من اختلاف الذات للغير. - أكثر من اتفاق الذات للغير.

- قاعدة التعاطف: وصورتها هما:- قلة من تنافر الذات والغير. - أكثر من تعاطف الذات والغير.

والملاحظ أن قاعدة اللباقة هي القاعدة الأساسية، في حين تعد بقية القواعد الأخرى متفرعة منها، وقد تعدّ السبب في اللجوء إلى الأقوال غير المباشرة، أما القاسم المشترك بين طرفي التواصل فهو التأدب.

5- مبدأ التصديق: هو المبدأ التداولي الخامس، وضعه طه عبد الرحمن، الذي يرى أن هذا المبدأ راسخ في التراث الإسلامي، متخذاً صوراً مختلفة فيه، منها مطابقة القول للفعل، وتصديق العمل للكلام، وصاغ المبدأ كما يلي: "لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك".

وتتفرع عن مبدأ الصدق في جانبه التبليغي قواعد مضبوطة، ذكر صاحب المبدأ أنها مجتمعة ومفصلة عند الماوردي في كتاب أدب الدنيا والدين¹⁷، وهي:

- ينبغي للكلام أن يكون لداع يدعو إليه، إما في اجتلاب نفع أو دفع ضرر.
- ينبغي أن يأتي المتكلم به في موضعه ويتوخى به إصابة فرصته.
- ينبغي أن يقتصر من الكلام على قدر حاجته.
- يجب أن يتخير اللفظ الذي به يتكلم.

وكخلاصة يذكر طه عبد الرحمان، أن التخاطب بنية تفاعلية تقوم على ضربين من المبادئ: مبادئ تواصلية وأخرى تعاملية، وأهم مبادئها خمسة، هي المذكورة سابقاً، وهي تتفاضل فيما بينها تفاضلاً؛ فمبدأ التأدب يفضل مبدأ التعاون بتقعيده للجانب التهذيبي، ومبدأ التواضع يفضل مبدأ التأدب بتعرضه لعنصر العمل من الجانب التهذيبي، ومبدأ التأدب الأقصى يفضل مبدأ التواضع لوقوفه على وظيفة التقرب من الغير، التي يؤديها العمل، ومبدأ التصديق يفضل مبدأ التأدب الأقصى، لأنه يقوم بشرطي التقرب من الغير؛ وهما الصدق والإخلاص، فيكون بذلك أفضل المبادئ وأكملها جميعاً، ولا عجب أن يكون هو الأصل الذي تقرر في الممارسة التراثية الإسلامية العربية¹⁸.

للإشارة فقط، فإن: "ظاهرة الاستلزام الحوارى دُرست بعد غرايس في إطار نظرية الأفعال اللغوية، على أساس أنها ظاهرة تعدد الأفعال اللغوية بالنسبة للمحتوى القضوي الواحد"¹⁹. يعني هذا أن الاستلزام الحوارى ليس منفصلاً عن نظرية الأفعال الكلامية.

الاستلزام الحوارى في "سورة مريم":

سورة مريم مكية عند الجمهور، وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول، تضمنت السورة أبعادا تداولية كثيرة، ظهرت من خلال الأغراض التي برزت في السورة، نذكر منها:

أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نهاية آل عمران وقد استهم في الخير، وكذا التنويه بجمع من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم، والإنذار مما حل بالمكذبين من الأمم من الاستئصال، واشتملت على كرامة زكريا إذ أجاب الله دعاءه، وكرامة مريم بخارق العادة في حملها وقداسة ولدها، وهو إرهاب لنبوءة عيسى عليه السلام، والتنويه بإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وإسماعيل، وإدريس عليه السلام، ووصف الجنة وأهلها...²⁰

سأتناول فيما يلي، المعاني المستلزمة في بعض الأساليب الخبرية والإنشائية في سورة مريم، وسأختار الآيات التي تضمنت الحوار بين سيدنا إبراهيم عليه السلام وأبيه، لأحاول فيما بعد الوقوف على مبادئ الحوار التي رأيناها سابقا.

قال تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنَّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنَّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ لِأَرْحَمْنَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾²¹.

أولا: المعاني المستلزمة عن الآيات الكريمة:

﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ في الآية الكريمة فعل إنجازي طلبى، يتمثل في فعل الأمر "اذكر" الذي أمر به الله تعالى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم

أن يذكر إبراهيم عليه السلام وما كان من أمره، والمعنى المستلزم من فعل الأمر هو التبليغ، والتلاوة.

وفي قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ إخبار عن إبراهيم عليه السلام، أنه "كان مصدقاً بجميع الأنبياء وكتهم، وكان نبياً في نفسه، كقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾²²، أو كان بليغاً في الصدق، لأن ملاك أمر النبوة الصدق.²³

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ في قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ فعل إخباري عما دار بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، لنجد مباشرة فعلا إنجازيا طلبيا، يتمثل في النداء، وهو ﴿يَا أَبَتِ﴾ الذي يستلزم معنى التنبيه، خاصة وأن المحاوره في بدايتها، لكي يستحضر والده الذهن جيدا ويفهم ما يريد إبراهيم عليه السلام قوله.

أما الفعل الإنجازي الذي ولي النداء مباشرة فهو الاستفهام، والاستفهام هنا يحمل معنى قضيوا مباشرا، وهو المعنى الحقيقي للسؤال، وكذلك معنى مستلزما، وهو التعجيز، يقول محمد الطاهر بن عاشور: "الوجه ما بني عليه من أن الاستفهام مستعمل في حقيقته، كما أشار إليه صاحب الكشاف، ومكنى به عن نفي العلة المسؤول عنها بقوله ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾، فهو كناية عن التعجيز عن إبداء المسؤول عنه، فهو من التورية في معنيين يحتملها الاستفهام."²⁴

- ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ نجد في الآية الكريمة إعادة نداء إبراهيم-عليه السلام- لأبيه، وهو أسلوب إنشائي (ينتهي للأفعال الإنجازية)، والمعنى المستلزم من هذه الإعادة هو التوكيد على أهمية ما يدعوا أباه إليه، كما أعاده "لإحضار الذهن ولإمحاء النصيحة، المستفاد من النداء الأول"²⁵. وفي قوله اتبعني (فعل إنجازي طلبي)، يظهر فعلا ذلك المعنى المستلزم من النداء والأمر، والمتمثل في إصراره على النصيحة.

وفي قوله ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ (فعل إخباري)، يريد إبراهيم عليه السلام من خلال فعل القول هذا، أن يصف الطريق الذي دعا أباه إليه، وصفا حسنا حتى يجلب أباه إليه، وهو المعنى المستلزم في هذا السياق، وقد جاء هذا الفعل الإخباري على شكل "استعارة مكنية، شُبه إبراهيم عليه السلام بهادي الطريق البصير بالثنايا، وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه، وهو أيضا استعارة مصرحة بأن شبه الاعتقاد الموصل إلى الحق

والنجاة بالطريق البصير بالثنايا، وإثبات الصراط السوي قرينة التشبيه، وهو أيضا استعارة مصرحة بأن شبه الاعتقاد الموصل إلى الحق والنجاة بالطريق المستقيم المبلغ إلى المقصود.²⁶

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ يتكرر هنا أيضا الفعل الإنجازي الطلبي المتمثل في النداء، وهو يستلزم معنى زيادة تأكيد ما أفاده النداء الأول والثاني، كما أن ذكره للفظ "الشیطان" بدلا من عبادة الأصنام، استلزم معنى آخر، فقد "عبر عنها بعبادة الشيطان إفصاحا عن فسادها وضلالها، فإن نسبة الضلال والفساد إلى الشيطان مقررة في نفوس البشر"²⁷، وأكد أن عبادة الأصنام هي عبادة للشيطان، أما المعنى المستلزم عن الفعل الكلامي الطلبي ﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ هو "تبغيض لعبادة الأصنام، لأن في قرارة نفوس الناس بغض الشيطان والحذر من كيده"²⁸. وفي قوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فعل إخباري، يستلزم معنى التعليل لسبب عدم عبادة الشيطان، وهو عصيان الشيطان للرحمن.

كما تظهر هنا لطيفة من لطائف التعبير، تتمثل في توظيف وصف "الرحمان" لله تعالى، دون غيره من الأسماء والصفات، وفي هذا معنى استلزامي، يمثل "تنبيها على أن عبادة الأصنام توجب غضب الله، فتفضي إلى الحرمان من رحمته، فمن كان هذا حاله فهو جدير بأن لا يتبع"²⁹.

كما أننا نلاحظ هنا إظهار اسم الشيطان، رغم أنه ذكر قبلا، يعني المقام هنا يستدعي الإضمار، إذ لم يقل: "إنه كان للرحمن عصيا"، والمعنى المستلزم من ذلك هو "إيضاح إسناد الخبر إلى المسند إليه، ولزيادة التنفير من الشيطان، لأن في ذكر صريح اسمه تنبيها إلى النفرة منه، ولتكون الجملة موعظة قائمة بنفسها"³⁰.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنْ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ المعنى المستلزم عن النداء هو التوكيد كسابقه، وفي الفعل الإخباري الموالي للنداء، ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾ أخبر إبراهيم عليه السلام عن الاحتمال الناتج عن معصية الله، وهو العذاب، الذي يصيب الشيطان وأولياءه، فكان المعنى المستلزم من الإخبار هو التحذير، "فحذره من عاقبة أن يصير من أولياء الشيطان"³¹، كما أن تعبير إبراهيم عليه السلام "بالخوف الدال على الظن دون القطع تأدب مع الله تعالى، بأن لا يثبت أمرا فيما هو من تصرف

الله، وإبقاء للرجاء في نفس أبيه لينظر في التخلص من ذلك العذاب، بالإقلاع عن عبادة الأوثان³².

وهنا تظهر مراعاة المقام عند إبراهيم عليه السلام، إذ راعى أن الذي يعذب هو الرحمن، الذي يملك التصرف في رحمة عباده أو تعذيبهم، كما فتح بذلك المجال أمام أبيه ليتجنب العذاب، ويعود إلى أرحم الراحمين.

في الآية الكريمة الموالية، يظهر الطرف الثاني من المحاور، وهو هنا أبو إبراهيم، وسنرى كيف كان رده على دعوة إبراهيم عليه السلام له.

- ﴿قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيِّ يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَتَكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ يبدو أن الرد كان عنيفا، وأول فعل كلامي تلفظ به هو الاستفهام، الذي استلزم معنى آخر؛ هو إنكاره على إبراهيم عليه السلام ابتعاده عن عبادة أصنامهم، فاستلزم قوله ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ﴾ أن أبا إبراهيم ينكر على إبراهيم عليه السلام تمكن الرغبة عن آلهتهم من نفسه، ويهتم بأمر الرغبة عن الآلهة لأنها موضع عجب³³، يقول الزمخشري: "لما أطلعه على سماجة صورة أمره وهدم مذهبه بالحجج القاطعة وناصحته المناصحة العجيبة مع تلك الملاحظات أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر وغلظة العناد فناده باسمه ولم يقابل " يَا أَبَتِ " ب " يا بني " وقدم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيِّ يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد³⁴. كما أن الفعل الكلامي المتمثل في النداء ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ "تكملة لجملة الإنكار والتعجب، لأن المتعجب من فعله مع حضوره يقصد بنداؤه تنبيهه على سوء فعله.³⁵

﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لِأَرْجُمَتَكَ﴾ والفعل الكلامي هنا من اللزوميات أو الوعديات، يظهر فيه المعنى الاستلزامي بوضوح، وهو التهديد الشديد، لوجود أدوات مؤكدة. وهي هنا اللام الموطئة للقسم.

والرجم الذي يعني الرمي بالحجارة، يحمل معاني استلزامية، "وهو كناية مشهورة في معنى القتل بذلك الرمي. وإسناد أبي إبراهيم ذلك إلى نفسه يحتمل الحقيقة، إما لأنه كان من عاداتهم أن الوالد يتحكم في عقوبة ابنه، وإما لأنه كان حاكما في قومه. ويحتمل المجاز العقلي إذ لعله كان كبيرا في دينهم فيرجم قومه إبراهيم عليه السلام استنادا لحكمه بمروقة عن دينهم³⁶.

وفي قوله ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ عطف على قوله ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾: "وذلك أنه هدده بعقوبة آجلة إن لم يقلع عن كفره بآلهم، وبعقوبة عاجلة وهي طرده من معاشرته وقطع مكالته"³⁷. والمعنى المستلزم من قوله اهجرني هو التحقير، "وإنما أمر أبو إبراهيم ابنه بهجرانه ولم يخبره بأنه هو يهجره؛ ليدل على أن هذا الهجران في معنى الطرد والخلع، إشعاراً بتحقيقه."³⁸، يقول الزمخشري: "فإن قلت: علام عطف ﴿ وَاهْجُرْنِي ﴾ قلت: على معطوف عليه محذوف، يدل عليه ﴿ لأرجمَنَّكَ ﴾ أي فاحذرني واهجرني، لأن "لأرجمَنَّكَ" تهديد وتقريع."³⁹

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ في هذه الآية يرجع الدور في المحاوراة - لإبراهيم عليه السلام- ليرد على أبيه، ويا له من رد.

في قوله ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ يلقي سلاماً على أبيه رغم الرد الذي قابله به، والمعنى المستلزم من هذا الفعل الكلامي الذي بدأ به إبراهيم عليه السلام قبل رده على أبيه هو الإشارة "إلى أنه لا يسوؤه ذلك الهجر في ذات الله تعالى ومريضاته"⁴⁰ كما كان "من حلم إبراهيم عليه السلام أن كانت مشاركته أباه مثوبة بالإحسان في معاملته في آخر لحظة"⁴¹. وكنا قبل قليل رأينا تكرار الفعل الكلامي من إبراهيم المتمثل في النداء، وقلنا إن معناه المستلزم هو التأكيد على النصيح، نجد هذا المعنى المستلزم يظهر مرة أخرى في قوله ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾، وهذا الفعل الكلامي يندرج ضمن الإلزاميات، لأنه وعد بالاستغفار في المستقبل-لدلالة السين عليه-، رغم ما لاقاه به من سوء ردّ، وهذا إنما يدل على حرصه الشديد على هداية أبيه، وهذا هو المعنى المستفاد من السياق اللغوي للآية. وفي قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ فعل كلامي إخباري، ومعناه المستلزم هو "تعليل لما يتضمنه الوعد بالاستغفار من رجاء المغفرة، استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام بأن يوفق الله أبا إبراهيم للتوحيد ونبذ الإشراك"⁴².

والفعل ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ (الذي يندرج ضمن الإعلانات)، المعطوف على فعل الاستغفار، ورد غير مقترن بالسين كالفعل الذي عطف عليه، وهذا يبين أنه لن يبقى معهم، واعتزاله لهم يكون في الحاضر، والمعنى المستلزم من قوله؛ هو أن إبراهيم عليه السلام أظهر "العزم على اعتزالهم، وأنه لا يتوانى في ذلك ولا يأسف له، إذا كان في ذات الله تعالى"⁴³، كما ورد الفعل مقترناً بضمير الجمع للمخاطبين، رغم أن الخطاب كان

للوحد، وهذا يستلزم أن إبراهيم عليه السلام علم أن "بقية القوم على رأي أبيه، فرأى أن يهجرهم جميعاً"⁴⁴.

وبعد أن أعلن إبراهيم عليه السلام اعتزال قومه وما يعبدون، أعلن أيضاً بفعل القول التصريحي ﴿وَأَدْعُورِي﴾ بأنه سيعبد الله، واستلزم هذا الفعل الكلامي معنى آخر، فكان إعلانه "احتراساً من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم، فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بين لهم أنه بعكس ذلك يدعو الله الذي لا يعبدونه"⁴⁵.

كما كان فعل الإسناد في قوله "أدعو" مسنداً إلى نفسه (أنا)، وهو يحيل إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى، والقوة الإنجازية هنا هي الاعتزاز بعبادة الله.

وفي قوله ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أسلوب خبري، يستلزم معنى الرجاء، أي رجاء إبراهيم عليه السلام أن لا يكون شقياً بدعاء ربه، كما يظهر أن في قوله هذا معنى مستلزم آخر، وهو "تعريض بأنهم أشقياء بدعاء آلهتهم"⁴⁶.

ولم يكن إبراهيم عليه السلام بدعاء ربه شقياً، بل كان ربه معه سخياً.. فكان جزاؤه أن عوضه ربه بالكثير، وهو ماجاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اعْتَرَكُمُومًا وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾⁴⁷.

ثانياً- محاوره إبراهيم عليه السلام لأبيه؛ وفق مبادئ الحوار التداولية:

إن الناظر في مبادئ الحوار الخمسة التي مرت معنا -رغم نقائصها والانتقادات الموجهة إليها- قد يعجب أيما إعجاب بالجانب التهديبي، الذي حاول كل واحد من أولئك الواضعين أن يركز عليه، من خلال سنّ كل واحد منهم لقواعد يجب أن يتبعها المتحاورون في كلامهم، وسنرى موقع محاوره إبراهيم عليه السلام من هذه المبادئ.

-تمثلت صيغة مبدأ التعاون في "ليكن انتهاضك للتخاطب على الوجه الذي يقتضيه الغرض منه"، وقد تحقق هذا في العملية التخاطبية بين إبراهيم عليه السلام وأبيه، إذ كان الغرض من محاورته هو دعوة أبيه لترك عبادة الأصنام، وعبادة الله وحده، كما تضمنت محاورته جميع القواعد المتفرعة عن مبدأ التعاون:

1- كان محترماً: قاعدة كم الخبر: إذ أعطى من الكلام الذي يفيد المخاطب على قدر حاجته، ولم يتعدّ القدر المطلوب، إذ بين لأبيه أنه على ضلال، بعبادته للأصنام، وأن الذي يستحق العبادة هو الله وحده، وبين له عاقبة الذين يتبعون الشيطان.

-كما احترم قاعدة كيف الخير: فهو لم يقل ما يعلم كذبه، بل أخبره بالعلم الذي علمه إياه ربه، وكان متيقنا من صحّة ما يدعو إليه، كما لم يقل ما ليست له عليه بيّنة، يظهر لنا ذلك من خلال قوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾⁴⁸، ولم يقل "سيمسك عذاب من الرحمان"، لأن تعذيب البشر من شأن الله، فلم يجزم له به، بل حذره منه.

-أما قاعدة علاقة الخبر بمقتضى الحال: فكانت حاضرة في المحاوره، فمقامه هو مقام دعوة إلى الله، فكان حديثه موجها في السياق نفسه، كما راعى إبراهيم عليه السلام مقام والده، فكان كلامه معه في غاية اللطف، ومنتهى الأدب.

-أما قواعد جهة الخبر: الممثلة في التحرز من الالتباس و من الإجمال، والتكلم بإيجاز، وترتيب الكلام، فهي واضحة جلية من السياق اللغوي للآية، يلمسها القارئ دونما استعانة بأي شرح، ولكن لا بأس من أن نرى ما جاء عن ذلك في التحرير والتنوير: "علم إبراهيم عليه السلام أن في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق وبخاصة الآباء مع أبنائهم، فتوجه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة، إيماء إلى أنه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجة فساد عبادته، فيصوره بالاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطئ، منها على خطئه عندما يتأمل في عمله، فإنه إن سمع ذلك وحاول بيان سبب عبادة أصنامهم لم يجد لنفسه مقالا، ففطن بخلط رأيه وسفاهة حلمه، فإنه لو عبد حيا مميزا لكانت له شبهة ما، وابتدأ بالحجة الراجعة إلى الحس إذ قال له ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ فذلك حجة محسوسة، ثم أتبعها بقوله ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، ثم انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾، فلما قضى حق ذلك انتقل إلى تنبيهه على أنّ ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان، ثم ألقى إليه حجة لائقة بالمتصلين في الضلال بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾، أي أن الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه، فإن أصنامك لم تتوعدك على أن تفارق عبادتها... وفي النداء بقوله: ﴿يَا أَبَتِ﴾ أربع مرات؛ تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعدة لأنها مقام إطناب... وهذا من طرق الإعجاز"⁴⁹، وكان هذه الفقرة لخصت جيدا احترام إبراهيم عليه السلام لقواعد مبدأ التعاون.

- أما مبدأ التأدب: المتلخص في عبارة "لتكن مؤدبا"، الذي يوجب الالتزام بضوابط التهذيب، بما لا يقل عن ضوابط التبليغ، فكان هو الآخر حاضرا بقواعده الثلاث، إبراهيم عليه السلام لم يفرض نفسه على أبيه، بل عرض عليه الهداية وما فيها من خير، وحنره من الشرك وما فيه من سوء، تاركا لأبيه حرية الاختيار بنفسه، ويظهر ذلك من خلال قوله ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ "سلام توديع ومشاركة، كقوله تعالى: ﴿ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾⁵⁰، وقوله: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾⁵¹، وهذا دليل على جواز مشاركة المنصوح له والحال هذه"⁵².

وفي الآن نفسه كان يُظهر الودّ واللين لمخاطبه، من خلال ندائه: ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ التي تحمل من الرقة ما تحمل، علما أن إبراهيم عليه السلام كان حريصا على تبليغ رسالته وهداية أبيه، يشير الزمخشري إلى طريقة نصح إبراهيم عليه السلام لأبيه: "كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة واللفظ والرفق واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن، منتصحا في ذلك بنصيحة ربه عز وعا، "حدث أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام: إنك خليلي؛ حسن خلقك ولو مع الكفار، تدخل مداخل الأبرار، فإن كلمتي سبقت لمن حسن خلقه: أظله تحت عرشي، وأسكنه حظيرة القدس، وأدنيه من جواربي"⁵³، يا الله، ما أجمل القواعد التخاطبية التي علمها الرحمن لخليله.

لكن في الجهة المقابلة، يظهر غياب العنصر التهذيبي تماما في ردّ والد إبراهيم، وهو ما يوحى بالسلوك السيئ الذي يكون عليه عبدة الشياطين.

- مبدأ التواجه: الملخص في عبارة: "لتصن وجه غيرك"، الذي ذكر له "براون" و"ليفنسون" خمسا من المبادئ التخاطبية للتخفيف من الآثار التهديدية، على المتكلم أن يختار منها ما يلائم قوله ذي الصيغة التهديدية. -وقد ذكرناها سابقا-
طلب إبراهيم عليه السلام هو "ترك عبادة الأصنام وعبادة الله وحده" ويحلل وفق مبدأ التواجه كالآتي:

-لم يمتنع إبراهيم عليه السلام عن المخاطرة بالوجه، رغم إمكانية أن يضر ذلك به وبالمستمع، فلم يمتنع عن طلب ترك عبادة الأصنام والعودة إلى الله.
-لم يطلب إبراهيم عليه السلام من أبيه ترك الأصنام، دون أن يستعين بصيغة تُلطف الأثر التهذيبي لهذا الطلب، بل توسل إليه، بصيغة تحفظ الوجه الدافع لهذا

المستمع، فكان مما قاله له: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾.

-وقد توسل إبراهيم عليه السلام إلى أبيه عند طلب ترك عبادة الأصنام بصيغة تحفظ الوجه الجالب لهذا المستمع، وذلك في مثل قوله: ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ وفي قوله ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾.

-كما طلب إبراهيم عليه السلام من أبيه ترك الأصنام بطريق التعريض أيضا؛ في مثل قوله: ﴿ عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾، ثم فسح المجال لمخاطبه ليستنبط المعنى المستلزم بنفسه، فقد بين له أن من يعبد الأصنام سيكون حتما شقيا. "عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم...مع التواضع لله بكلمة "عسى" وما فيه من هضم النفس"⁵⁴.

أما والد إبراهيم، فلم يكلف نفسه عناء اختيار وسيلة التبليغ، بل صرح بالقول المهذد، من غير تعديل يخفف من جانبه التهديدي، "وقد جاء في جوابه دعوة ابنه بمنتهى الجفاء والعنجهية، بعكس ما في كلام إبراهيم عليه السلام من اللين والرقّة، فدل ذلك على أنه كان قاسي القلب بعيد الفهم، شديد التصلب في الكفر"⁵⁵.

4- أما القواعد المتفرعة عن مبدأ التأدب الأقصى: الذي صاغه ليتش في صورتين: هما:

-أكثر من الكلام المؤدب. -قلل من الكلام غير المؤدب.

فقد كانت حاضرة وبكثرة في هذه المحاوره، وأكثر القواعد حضورا هي قاعدة اللباقة، التي تعد أهم ما في المبدأ: وصورتها هما: -قلل من خسارة الغير. - أكثر من ربح الغير.

فإبراهيم عليه السلام بذل كل جهده في كسب أبيه وقومه ودعوتهم إلى دين الحق، بكل ما أوتي من حسن الكلام ولطيف التعبير، وقوة في الحجة، كما رأينا سابقا.

أما القاسم المشترك بين طرفي التواصل المتمثل في التأدب، فقد مثله إبراهيم عليه السلام أحسن تمثيل، وأما أبوه فقد انطبقت عليه الصور السلبية لهذه القواعد.

-نأتي الآن لتحليل المحاوره وفق آخر مبدأ، وهو مبدأ التصديق، الذي وضعه طه عبد الرحمن، مستلهما إياه من التراث الإسلامى، والشىء الجديد في المبدأ، -عدا قواعد الخطاب التي رأيناها مع المبادئ الأخرى - يكمن في مطابقة القول للفعل، وتصديق العمل

للكلام، وصاغ المبدأ كما يلي: "لا تقل لغيرك قولاً لا يصدقه فعلك"، فهل تحقق ذلك في محاوره إبراهيم عليه السلام مع أبيه؟

إن كل ما ذكره إبراهيم عليه السلام لأبيه، كان صادقا فيه قولاً وفعلاً، فمثلاً في وعده لأبيه بالاستغفار، الذي نجده في قوله تعالى: ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) ﴾ فإنه وفي بوعده، ويظهر وفاؤه بالعهد في قوله تعالى: ﴿ وَأَغْفِرُ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾⁵⁶، وذكر تعالى ذلك في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِثْمًا ﴾⁵⁷.

كما يظهر تطبيقه لقوله ﴿ وَأَعْتَزِلُّكُمْ ﴾ في المهاجرة إلى الشام، وقوله كذلك ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي ﴾ كان صادقا فيه؛ فقد كان يعبد ربه لا يشرك به شيئاً، ويدعوه رغبا ورهبا، ودعاؤه موجود في آيات كثيرة من القرآن، سلاماً على إبراهيم.

خاتمة:

من خلال التحليل التداولي من منطلق مفهوم الاستلزام الحوارية، فإنه تبين أن القرآن الكريم قد تضمن دلالات صريحة ومباشرة، ودلالات مستلزمة غير مباشرة، تُستنبط من خلال السياق التداولي لها، كما تبين أن كتب التفسير كانت تداولية وبامتياز، فقد أشارت إلى كل هذه المعاني المباشرة والمستلزمة، في كل جزء من كلام الله، كما بينت أغراض ومقاصد المتكلمين في كل مقام، وهي العناصر التي يقوم عليها التحليل التداولي. وهذا يدل على الوعي التام الذي كان عند المفسرين وعلماء العربية، بأهمية العملية التخاطبية وأطراف التواصل، فكان اهتمامهم واضحاً بكل هذه الأطراف، من متكلم، وملتق، والرسالة، والمقاصد، والسياق.. الخ.

أما من خلال الوقوف مع محاوره إبراهيم عليه السلام لأبيه وفق مبادئ التخاطب التداولية، فإنها بينت لنا أن القرآن الكريم قد أسس هذه القواعد منذ قرون، وهذه القواعد علمها الله تعالى لعباده المرسلين كي يتبعوها في التبليغ عنه، فقال لحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِدِينَ ﴾⁵⁸، وقال مخاطباً كليته موسى عليه السلام: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾⁵⁹.

وهذه الآليات الخطابية، تبين عناية الدين الحنيف بالعنصر التهديي فى العملية التخطابية، واحترام الآخر، وقد التزم الرسل-عليهم سلام الله- بهذه الآليات الخطابية، فبلغوا رسالة ربهم بأخلاق نبيلة فاضلة، وهذا يبين الإعجاز اللغوى والبلاغى للقرآن الكريم، الذى جاء بأسلوب الحوار الراقى، قبل هذه الدراسات الغربية الحديثة بقرون كثيرة.

- 1- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة الخانجي، القاهرة، مصر دط، 1975، ج1، ص76
- 2- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار الفنك، الدار البيضاء، المغرب، 1984، ص 32.
- 3- رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ص6.
- 4- صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت، أغسطس 1992، ص21.
- 5- طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1994، ص243
- 6 - صلاح إسماعيل، نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2005، ص78
- 7 - مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي)، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص33
- 8- - العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2011، ص25
- 9 - - فيليب بلاتشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ط1، 2007، ص84.
- 10 - طه عبد الرحمان، ، اللسان والميزان (أو التكوثر العقلي)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص238
- 11 - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 238-239، وكذلك، فيليب بلاتشيه، التداولية من أوستين إلى غوفمان، ترجمة صابر الحباشة، ص 283.
- 12 - طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص239
- 13- عبد المجيد جحفة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 2000، ص31
- 14- طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص 239.
- 15- حسان الباهي، الحوار ومنهجية التفكير النقدي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2004، ص131
- 16 - ينظر، طه عبد الرحمن. اللسان والميزان، ص239
- 17 - - الماوردي أبو الحسن، أدب الدنيا والدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، دط، ص177-266.
- 18- ينظر، طه عبد الرحمن اللسان والميزان (أو التكوثر العقلي)، ص ص238-253، وينظر كذلك عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجية الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط1، 2004.
- ص 100 وما بعدها.
- 19- أحمد المتوكل، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ليبيا، ط: 02، 2010م، ص30.

- 20- ينظر، محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج16، ص 60-61
- 21- سورة مريم، الآيات:41-48
- 22- سورة الصافات، الآية 37
- 23- الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (كل الأجزاء في مجلد واحد) تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط3.1430هـ/ 2009م ص 637
- 24- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص114
- 25- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص115-116
- 26- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص116
- 27- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص116-117
- 28- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص117
- 29- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص117
- 30- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص117-118
- 31- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص118
- 32- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص118
- 33- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص119
- 34- الزمخشري، الكشاف، ص 638
- 35- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص119-120
- 36- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص120
- 37- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص120
- 38- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص120
- 39- الزمخشري، الكشاف، ص 638.
- 40- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص121
- 41- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص121
- 42- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص122
- 43- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص122
- 44- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص122
- 45- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص122-123
- 46- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص123
- 47- سورة مريم، الآيتان: 49-50
- 48- سورة مريم، الآية 45
- 49- محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص115-116
- 50- سورة القصص، الآية 55
- 51- سورة الفرقان، الآية 63

- 52 - الزمخشري الكشاف، ص 638
53 - الزمخشري، الكشاف، 638-639
54 - الزمخشري، الكشاف، ص 639
55 - محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج16، ص122-123
56 - سورة الشعراء، الآية 86.
57 - سورة التوبة، الآية 114
58 - سورة النحل، الآية125
59 - سورة طه، الآيات: 42-43-44

*** **